حكايات نحبها جميعاً

(١٥)

كانت أجمل نساء زمانها

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

لِماذَا التَّركيزُ على الصَّحابيَّاتِ فَقَطْ؟!

أَطْلَعَتْ (نَاهدٌ) والدَتها (السَّيدة لَيلَىٰ) عَلى بَعضِ ما كَتَبَتْهُ مِنْ تَراجِمَ ، وطَلَبَتْ مِنْها ـ من بابِ الرَّجاءِ ـ أَنْ تُقيِّمَ لَها ذلكَ ، وأَنْ تَضَعَ مُلاحظَاتِها ، خَاصَّةً أَنَّ (السيدة ليلى) تَعْمَلُ فِي مَجَالاتِ النَّقدِ الأَدَبِيِّ ، ولها اهتمَاماتٌ فِكريةٌ ، ويشهَدُ لَهَا فطاحِلُ هَذا الفَنِّ بِذلكَ.

وبالفِعْلِ ، قَرَأَتِ (السَّيِّدَةُ لَيلَى) غالبِيَّةَ ما كَتَبَتْ (نَاهِدٌ) ، ودَوَّنَتْ بعضَ المُلاحظَاتِ ، وخاصَّةً ما يتعلَّقُ بالأُسلوبِ وطَرِيقَةِ السَّرْدِ ، وبَعضِ الأُمُورِ التي تَختَصُّ بالقواعِدِ ونَحو ذَلِكَ.

وفِي سَهرةِ يَوْمِ الخميسِ اجتمعَ الأولادُ حَوْلَ والِدهم ، يتجاذَبُونَ أطرافَ الحَديثِ ، ويُتابِعُونَ بعضَ البَرامِجِ التِّلفِزيُونيَّةِ الهَادِفَةِ.

قالَ صَغيرُ العائلةِ (أَنْوَرُ): بَعدَ خَمسِ دَقائِق سَيُعْرَضُ برنَامِجُ مُسابقَاتٍ ثَقَافيَّةٍ مُتَنوِّعَةٍ.. وأَنَا أُحِبُّ هَذا البَرنَامج!!

فَقالَ أَخُوهُ (سَعِيدٌ): ولكنَّا نُريدُ مُتَابَعَةَ بَرنامَجِ الرِّياضَةِ في القَناةِ الأُخرَىٰ.

ابْتَسَمَ الأُستاذُ (نَاجِي) وَهُوَ يَنْظُرُ إلىٰ آخِرِ العُنقودِ.. وقالَ: يَبدُو أَنَّا في هذا الزَّمَانِ سَنسِيرُ على حَسْبِ ما يُريدُ أَصغَرُ الأَوْلَادِ!!

قفَزَ (أَنْوَر) إلىٰ حُضْنِ والِدِهِ وَهُوَ يَقُولُ: عَاشَتِ الدِّيمُقرَاطِيَّةُ.. وتَحيا العَدَالَةُ... أَنتَ أَفضَلُ أَبٍ فِي الدُّنيا..

تَمْتَمَ (سَعيدٌ) بِكَلماتٍ غيرِ واضِحَةٍ. فقالَ والِدُهُ: وماذا تَقُولُ يا سَعِيد؟

قال (سَعِيدٌ): لا شَيْءَ.. مَا دامَ القَرارُ قَدْ أَصبحَ فِي يَدِ أَصغَرِنَا..

ومشَى الوالدُ إلى جَنْبِ ابنهِ(سَعيد).. وَوَضَعَ يَدَهُ على رَأسِهِ.. ثُم قال لَهُ: اطْلُبْ ما تَشاءُ.. ونَحْنُ سَنُلَبِّي لكَ ذلكَ.

ابْتَسمَ (سَعيدٌ) ثُمَّ قالَ: إِذَاً أُريدُ صَحْناً مِنَ الحلَوياتِ اللَّذِيذَةِ..

هزَّ الوَالِدُ رَأسَهُ وقالَ: لكَ ما أَرَدْتَ يا سَعِيد ، لَكِنْ أيّ نوعٍ مِنْ أَنواعِ الحَلَويّاتِ تُريدُ؟

قالَ (سَعيد): إِنَّنِي أُحِبُّ (الكنَافَةَ النَّابلسيَّة) الَّتي تُصنعُ فِي بِلادِنَا ، بِلادِ الشَّامِ ، فَهِيَ مِنْ

أَطيبِ أنْوَاعِ الحَلَوِيَّاتِ، وخاصَّةً فِي فَصلِ الشِّتاءِ.

وَوَقَفَ الأُستاذ ناجِي.. ثُمَّ قال: مَنْ سَيَذْهَبُ مَعِي إلى مَحَلِّ الحَلَوِيَّات؟

أَسرَعَ (أنور) ، وَ(سعيد) ، و(عَصْمَاءُ) إلى بَابِ البَيْتِ ، وانطَلَقُوا بِصُحْبَةِ والِدِهِمْ ، ورَاحُوا يَتمازَحُونَ ، ويتمنَّونَ ، ويَضحَكُونَ.

أمَّا السَّيِّدةُ ليلى فقَدْ نَادَتْ ابنَتَهَا (ناهِد) إلىٰ الغُرفةِ الغَربيَّةِ مِنَ البَيْتِ.. وَجَلَستا قُربَ المِدْفَأَةِ..

قالَتِ الوَالِدَةُ: يا بُنَيَّتِي! لَقَدْ قَرأتُ غالِبِيَّةَ ما كَتَبْتِ مِنْ تَراجِمَ ، وأَعجَبَنِي أُسلُوبُكِ وطَرِيْقَةُ مُعالَجَتِكِ لِلْفِكْرَةِ، ووضَعْتُ لَكِ بعضَ المُلاحظاتِ

العَادِيّةِ ، ولكِنْ لَدَيّ اقتراحٌ أَرْجُو أَنْ تَتَقبّليهِ مِنْ والِدَتِكِ..

أَجل يا وَالِدَتِي! ـ قَالَتْ (ناهد) ـ فأَنَا ما زِلْتُ فِي أَوَّلِ الطَّريقِ ، وأَنْتِ لَدَيْكِ الخِبْرَةُ الكَافِيَةُ فِي هَذا المَجَالِ ، واسْمُكِ وشُهرَتُكِ كَعَلمٍ فِي رأسِهِ نَارٌ!!.

وكَمَا تَعلَّمنا مِنْكِ مُنذُ الصِّغَرِ ، فالإنسانُ العَاقِلُ هُوَ الذي يَستَفِيدُ دائماً مِنَ الآخرينَ ، وذلكَ لأنَّ الحِكْمَةَ ضالَّةُ المُؤمنِ أَنَّىٰ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحقُّ بِهَا.. والجَاهِلُ هُوَ الذي يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ وَصَل إلى الدَّرَجَات العُلاَ.. وإنَّهُ ليسَ بِحَاجَةٍ إلى أَحَدٍ.. ، يا وَالِدَتِي! هَاتي ما عِنْدَكِ مِنِ اقتراحاتٍ ، فواللهِ إنَّ اقتراحَاتِكِ بِالنِّسبَةِ لِي أَوامِرُ..

ابتَسَمَتِ السَّيِّدَةُ ليلى، ووضعَتْ يدَها اللَّطِيفةَ على كَتِفِ ابنتِها ، ثُمَّ قالَتْ: أَسألُ اللهَ أَنْ يَجعلكِ

مِـنْ حَمَلَـةِ لِـواءِ العِلْـمِ الصَّـافِـي والمُفيـدِ... واقتراحِي هُوَ: أنْ تُنَوِّعِي ، إنَّما لا بأْسَ أَنْ يكونَ مَعَ الصَّحابِيَّاتِ تَرَاجِمُ للتَّابِعيَّاتِ ومَنْ بَعدَهُنَّ..

وتَسَاءَلتْ (نَاهِدٌ): ولمَاذَا يا وَالِدَتِي؟!

قَالَتِ الوَالِدَةُ: سَيحْتَجُّ بَعضُ مَنْ يَقرَأُ مَا كَتَبْتِ بِمَا يَلِي: إنَّ الصَّحابِياتِ حَدَثَ ما حَدثَ لَهُنَّ ، مِنْ بُطُولاتٍ.. وإقبالٍ على العُلُومِ... وبَذْلِ مالٍ فِي سَبيلِ اللهِ.. وجِهَادٍ فِي سَبيلِ اللهِ ، كُلُّ ذلكَ بِسبَبِ مُعَاصَرَتِهِنَّ للمُصْطَفَىٰ صَلَواتُ اللهِ عَليهِ.. لكِنْ مَنْ جاءَ بَعْدَهُنَ هَلْ حَدَثَ مَعَهُنَّ مِثْلُ ذلِكَ..؟!

لِذلِكَ ـ يا بُنَيَّتِي ـ انْتَبِهِي إلىٰ هَذِهِ المَسألَةِ ، وأَدْخِلِي فِي عَملِكِ الضَّخْمِ هَذا تَراجِم بعضِ التَّابعيَّاتِ ومَنْ جاءَ بَعْدَهُنَّ.. وفَّقَكِ اللهُ لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَىٰ.

فِي رِحَابِ الفَضائِلِ والمَكَارِمِ..

وَفي صَبِيْحَةِ اليَومِ الثَّاني حَمَلَتْ (نَاهِدٌ) أَورَاقَهَا ودَفاتِرَهَا وَأَقْلامَها تُرِيدُ الذَّهابَ إلى المَكْتَبةِ ، ولمَّا رآها وَالِدُهَا نادَاها: إلىٰ أَيْنَ يا عَزِيزَتي؟

أَجَابَتْ: كَمَا هِيَ العادَةُ ، إلىٰ المَكْتَبَةِ التَّاريخيَّةِ.. إلى مَناهِلِ العِلْمِ والمَعْرِفَةِ ، ابتَسَمَ الأُستاذُ ناجِي وهُوَ يَهُزُّ رَأسهُ ويقُولُ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ ، مَا الذي أصَابَكِ يا بُنَيَّةُ؟ أَوَ نَسِيتِ أَنَّ هَذا اليَوْمَ هُوَ يَوْمُ الجُمُعَةِ..؟!

ضَرَبَتْ (نَاهدٌ) يَدَاً على يَدٍ وَهِيَ تَقُولُ: إنَّ اقتِراحَ والِدَتِي أَنْسَانِي كُلَّ شيءٍ.

قالَ الوَالِدُ: وَما هُوَ الاقْتِراحُ يا عَزِيْزَتِي؟!

فَلَمَّا أَخْبَرَتْهُ بِذَلِكَ قَالَ: إِنَّهُ اقتِرَاحٌ رَائِعٌ، ولِكَيْ لا يَضِيعَ عَليكِ الوَقْتُ، تَعالَي أُعْطِيكِ بَعضَ كُتُبِ التَّراجِمِ.. ، ودَخَلَتْ (نَاهدٌ) مَعَ والِدِهَا إلى غُرْفَةِ مَكْتَبَتِهِ الخَاصَّةِ حَيثُ أَرشدَهَا إِلَىٰ بَعضِ المَرَاجِعِ والمَصَادِرِ..

وخَرَجَ الأُسْتَاذُ نَاجِي إِلَىٰ غُرْفَةِ الصَّالُونِ، بَيْنَمَا انْهَمَكَتْ (نَاهدٌ) فِي العَمَلِ والبَحْثِ والتَّفتيشِ، حتَّىٰ جَمَعَتْ هٰذا المُلَخَّصَ المُفِيدَ:

عَائِشَةُ بنتُ طَلحةَ:

وَالِدُهَا الصَّحَابِيُّ الجَليلُ طَلْحَةُ بنُ عُبيدِ اللهِ التَّيمِيُّ، واحدٌ مِنَ المُبَشَّرينَ بِالجنَّةِ، وأحَدُ السِّتَّةِ أصحَابِ الشُّورَىٰ، لَقَّبَهُ رَسُولُ اللهِ بِأكْثَرَ مِنْ لَقَبٍ:

(أنْـتَ طَلْحـةُ الفَيَّـاضُ) و(طَلْحَـةُ الخَيـرِ) و(طَلْحَةُ الجُودِ) وذلكَ لِكَثْرَةِ إنفاقِهِ فِي المَعَارِكِ.

ووَالِدَتُها السَّيِّدَةُ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ الصِّدِّيقِ أَبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهم ، عاشَتْ فِي كَنَفِ أُخْتِها السَّيِّدَة عَائِشة ، ورَوَتْ عَنْهَا كَثِيراً مِنَ الأحادِيثِ النَّبويّةِ ، وكذلِكَ رَوَتْ وَقائِعَ السِّيرَةِ النَّبويّةِ.

وأَخوَالُها: عَبْدُ الرَّحمن ، وعبدُ اللهِ ، ومُحَمَّدُ بَنُو أَبِي بَكْرٍ الصِّديق.

وخَالَتُهَا الأُولَى: السَّيِّدَةُ عائشةَ ، والثَّانِيَة السَّيِّدَةُ أسماءُ ذَات النِّطاقَينِ.

هذا هُوَ الجَوُّ.. والمَكَانُ الذي عَاشَتْ فِيهِ التَّابِعِيَّةُ الجَلِيْلَةُ عَائِشَةُ بِنتُ طَلْحَة..

فَكيفَ سَيكونُ حالُها إِذَاً؟!

نَشْأَتُها.. وتَرْبِيَتُهَا

وَشاءَ اللهُ تَعَالىٰ أَنْ تُصْبِحَ (عَائِشَةُ) يَتِيْمَةَ الأَبِ ، وذلكَ عِنْدَما استُشْهِدَ والِدُهَا (يَوْمَ الجَمَلِ). لَكِنَّ الطِّفْلَةَ لَمْ تَكُنْ تَعرِفُ ذَلِكَ أَبداً ، فَوالِدَتُهَا (أُمُّ كُلْثُوم) أَخْفَتِ الأَمْرَ عَنْهَا... وَحاوَلَتْ تَلْبِيَةَ طَلَباتِها.. ومَلأَتْ فَراغَ حَياتِها ، حَتَّىٰ غَدَتْ وكَأَنَّها تَعِيشُ فِي كَنَفِ أَبٍّ وَأُمٍّ مَعَاً..

والأَمْرُ البَارِزُ فِي حَيَاتِهَا أَنَّ والدَتَها أَخَذتْ بِيَدِهَا إلى بَيْتِ أُخْتِهَا (السَّيِّدَة عائِشَةَ) لِتَنْمُوَ وتَتَرعْرَعَ عِنْدَها. وتَنْهلَ العِلْمَ والأَدَبَ والدِّينَ مِنْ هَذا البَيتِ الفَاضِلِ..

كَيْفَ لا؟ وخَالتُها السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ كَانَتْ أُوْلَىٰ نِساءِ الصَّحابَةِ عِلْماً وَحِفْظاً وَفِقْهَاً ، ولَقَد الْتَفَتتِ الخَالَةُ إلى أَمْرٍ هَامٍّ:

وَهُوَ أَنَّ الطِّفْلَةَ (عَائِشَةَ) كَانَتْ تُشْبِهُهَا تَماماً ، ولذَلِكَ أَحبَّتْ لَهَا ما أَحَبَّتْ لِنَفْسِهَا ، فَرَاحَتْ تُؤدِّبُهَا ، وتعلِّمهَا ، وتَصْحَبُها مَعَها ، وتُجْلِسُها فِي مَجَالِسِها.

ولذلكَ رَأَتْ (عَائِشَةُ بِنتُ طَلحةَ) فِي حجْرَةِ خَالَتِهَا كِبارَ الصَّحابَةِ ، بِما فِيهِمْ سادَاتنَا عُمَر وَعُثْمَان وعَلَيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، رَأَتْهُمْ يَأتُونَ إلى السَّيِّدَةِ عائشةَ ، وذلكَ بِهَدَفِ الاسْتِفْسَارِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الإشْكَاليَّاتِ والمُعْضِلاَتِ..

لِذلِكَ أصَابَ كَثِيرٌ مِنَ العُلماءِ ـ خاصَّةً عُلَماءُ الجَرحِ والتَّعديل.. وعُلماءُ الحَديثِ ـ عِنْدَما وَصَفُوا السَّيدَّة عَائِشَة بِأَوْصافٍ رَائِعَةٍ ، مِنْ ذَلِكَ ما قَالَهُ العَلاَّمَةُ المزِّيُّ: «لَمْ يَكُنْ فِي النِّساءِ أَعْلَمُ مِنْ تِلْمِيذاتِ عَائِشَة أُمِّ المُؤمنينَ ، وهُنَّ عَمْرَةُ

بنتُ عَبدِ الرّحمنِ ، وحَفْصَةُ بنتُ سِيْرينَ ، وعَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَة).

وَوَصَفَها العَلاَّمةُ أَبُو زُرْعَةَ الدِّمَشْقيُّ بِقَوْلِهِ: (عائِشَةُ بنتُ طَلْحَةٍ امْرأَةٌ جَليلَةٌ تُحَدِّثُ عَنْ عَائِشَة الصِّدِّيقَةِ أُمِّ المُؤمنينَ ، وتُحدِّثُ النَّاسَ عَنْهَا بِقَدْرِهَا وأَدَبِهَا).

وَقَدْ تَتَلْمَذَ عَلَىٰ يَدَيْهَا كَثيرٌ مِنَ التَّابِعينَ ، كَعَطَاءِ بنِ أَبي رَباح ، ورَوَوْا عَنْهَا كَثِيراً مِنَ الأَحادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، بَعْضُها مَوْجُودٌ فِي الصِّحَاحِ..

وقَدْ بَلَغَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ رُتْبَةَ: فَقِيْهَةِ التَّابِعيَّات...

ودَارَ الزَّمَنُ دَوْرَتَهُ ، فَكَبُرَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ ، وتَزَوَّجَتْ مِنِ ابْنِ خَالِهَا (عَبد اللهِ بن عَبد الرحمن بن أَبي بَكْر).

لَكِنَّهَا لَمْ تَتَّفِقْ مَعَهُ ، ولمَّا مَاتَ بَعْدَ بُرْهَةٍ ، أَقْبَلَ عَلَيْهَا الرِّجَالُ يُريدُونَ الفَوزَ بِهَا.. ، حتَّىَ إنَّ الإِمَامَ الذَّهبيَّ قَالَ عَنْهَا: كَانَتْ أَجْمَلَ نِساءِ زَمَانِهَا وأَرْأَسَهُنَّ..

وتزَوَّجَتْ مِنْ مُصْعَب بنِ الزُّبَير ، وعَاشَتْ مَعَهُ حَياةً رَغِيْدَةً إِلىٰ أَنْ وَافَاهُ الأَجَلُ..

كَرَامَات: لَهَا.. ولأَبيْهَا

وخَتَمَتْ (نَاهدٌ) تَرْجَمَةَ حَياةِ السَّيِّدَةِ عَائِشَة بِهذِهِ القِصَّةِ الرَّائِعَةِ:

بعْدَ مُضِيِّ أَكْثَرِ مِنْ ثَلاثِينَ سَنَةً علىٰ اسْتِشْهَادِ والِدِهَا طَلْحَةَ ، رَأَتْهُ فِي المَنَامِ فقالَ لَهَا: إِنَّ المَاءَ يُؤذِيني فِي قَبْرِي ، فانْقُليني إِلَىٰ مَكَانٍ آخَرٍ!!

وَفِي الصَّبَاحِ أَخْبَرَتْ عائشَةُ زَوْجَهَا وأقارِبَهَا بالرُّؤيَا ، فانْطَلَقُوا إلىٰ قُرْبِ البَصْرَةِ فِي العِرَاقِ ، ولَمَّا وَصَلُوا إلى مَكَانِ دَفْنِهِ ، أَمَرَتْ أَحَدَ رِجَالاتِهَا بِأَنْ يَنْبُشَ القَبْرَ ، وكانَتِ المُفاجَأَةُ:

لَقَدِ استُخْرِجَ صَحِيحاً طَرِيّاً كَمَا دُفِنَ مُنْذُ ثَلاثِينَ عَاماً ، فَكَفَّنُوهُ مِنْ جَدِيدٍ ، واشْتَرَتْ لَهُ دَاراً بِعَشْرَةِ آلافِ دِرْهمٍ ، فَدَفَنَتْهُ فِيهَا.

ورَتَّلَتْ (نَاهِدٌ) قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

وآخِرُ دَعوانَا أَنْ الحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ